توجهات الخطاب السردي في الرحلة الجزائرية المُعاصرة
- «رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» لعبد الملك مرتاض أنموذجاً-

Orientations of Narrative Discourse in Contemporary Algerian Travelogue: *"My Ten Journeys… and Their Wonders." by* Abdelmalek Mortadh as a Model



محمد سيف الإسلام بوفلاقة [1] *

[1] جامعة باجي مختار، عنابة، مخبر الشعريات وتحليل الخطاب، -الجزائر-

mohamed-saif-al-islam.boufalaka@univ-annaba.dz

تاريخ الإرسال: 2025/08/01 تاريخ القبول: 2025/09/21

****

ملخص:

يتميّز نص الرحلة بثراء موضوعاته؛ نظراً لتعدد الخطابات والمعارف التي يستند عليها، وهذا ما جعله يجمع عدة تخصصات معرفيّة، مثل: الأدب، والتاريخ، واللُّغة، والجغرافيا، والسيرة، إضافة إلى تنوُّع القضايا التي يطرحها، والأفكار التي يُثيرها، ولاسيما ما يتصل منها بحوار الثقافات والحضارات، وحضور الآخر والمثاقفة، وفتح النوافذ على الشعوب الأخرى؛ والتي تُمكّن الباحث من اكتشاف مختلف الأنساق المعرفيّة التي استندت إليها الذات في صياغة تصوراتها عن الكون، وحول كل ما يُحيط بنا. ويجتهد هذا البحث في إبراز خصائص الخطاب السردي في الرحلة الجزائرية المُعاصرة، من خلال الوقوف مع واحد من أهم الأعمال الأدبية التي تنضوي تحت لواء الرحلة الجزائرية الحديثة، وقد كُتب هذا العمل من قبل واحد من أكبر الأدباء والعلماء الجزائريين المُعاصرين، ونقصد بذلك العلاّمة والأديب والناقد عبد الملك مرتاض، الذي له كتاب واحد في مجال أدب الرحلة، وهو: «رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ».

الكلمات المفتاحية: مرتاض؛ خصائص؛ الخطاب؛ السرد؛ كتاب.

Abstract:

The travel text is characterized by the richness of its themes, due to the multiplicity of discourses and knowledge on which it relies. This has made it a meeting point for several fields of knowledge, such as literature, history, language, geography, and biography. Moreover, it tackles a variety of issues and ideas, especially the ones related to cultural and civilizational dialogue, the presence of the Other, intercultural exchange. Which enables the researcher to explore the different cognitive frameworks that the self relies on to perceive the universe. This research paper endeavours to highlight the characteristics of the narrative discourse in contemporary Algerian travel writing, by examining one of the most significant literary works in the realm of modern Algerian travel literature. This work was written by Abdelmalek Mortadh; one of the greatest contemporary Algerian scholars, writers, and critics. He wrote only one book in the field of travel literature, entitled "My Ten Journeys… and Their Wonders."

Key words: Mortadh, characteristics, discourse, narrative, book.

* د. محمد سيف الإسلام بوفلاقة

مقدمة:

ينهض أدب الرحلة على السرد القِصصي، إذ يُضمّنه الكاتب الرحالة مُشاهداته وانطباعاته في البلاد التي يزورها، وهي ترتكز على وصف الطبيعة الجغرافيّة، وتقديم لمحات عن تاريخ البلدان، أو عادات الناس وتقاليدهم وأنماط عيشهم وتفكيرهم؛ وهذه العناصر جميعها تكون في بعض الحالات مرجعا وثائقيًّا مهماً، وموضوعاً للدراسات المُقارنة في شتى المجالات الفكريّة الأدبيّة والحياتيّة، ومن شروط أدب الرحلات دقّة المُلاحظة، وتحرّي الحقيقة، وسُهولة الرواية، وحُسن الوصف. ولا ريب في أن الرحلات تكتسي أهمية كبيرة؛ كونها تتعرض إلى جميع نواحي الحياة، أو جُلِّها؛ إذ تتوفر فيها مادة وفيرة جداً مما يُهم السائح، والمؤرخ، والجغرافي، وعالم الاجتماع والاقتصاد، ومؤرخ الآداب، والأديان، والأساطير؛ فالرحلات منابع ثرَّة لشتى العلوم والفنون، وهي في مجملها سجل حقيقي لمختلف مظاهر الحياة، ومفاهيم أهلها على مر العصر؛ فالرحالة وهو يتجول في الأرض أثناء رحلته يُغطي في الوقت نفسه المظاهر المختلفة التي شاهدها وسمعها، ولا ريب في أن الرحالين يتنوعون في دقة ملاحظاتهم، وفي درجة اهتمامهم، وفي نوع هذا الاهتمام، وللرحلات قيمة علمية وأدبية؛ فالقيمة العلمية تتبدى من خلال ما تحتويه من معارف جغرافية، وتاريخية، و اجتماعية، واقتصادية، وهي واضحة في ما تمّ تدوينه من قبل الرحالة من جراء اتصاله المباشر بالطبيعة، وبالناس، وبالحياة خلال رحلته، وأما القيمة الأدبية؛ فهي تظهر من خلال ما تعرضه في موادها من أساليب ترتفع بها إلى عالم الأدب، وترقى بها إلى مستوى الخيال الفني.

أولاً: أدب الرّحلات: مُقاربة نظريّة شارحة

إن أدب الرحلات يعتمد على الدّقة والتفصيل، ويُلقي أضواء تجعل من جوانب الحالة التي يُصوّرها وكأنّها ماثلة أمامنا؛ في حين أن قيمته الأدبيّة تتجلى في أنّ ما كتبه الرحّالة بأخذ طريقه إلى عالم الأدب؛ نظراً لما يتّسمُ به من صدق التجربة واللهجة الشخصيّة، والتصوير الفنّي الحيّ؛ مما يجعله قريباً من عالم القصّة والرواية، ومن أبرز خصائص أدب الرحلة؛ التنوّع والشمول، إذ يتطلّب التاريخ والجغرافيّا، والعادات والتقاليد وأنماط الحياة (الشعار، 1999م، ص:198)، و على الرغم مما يتسم به أدب الرحلات من تنوع في الأسلوب من السرد القصصي، إلى الوصف، إلى الحوار، وغيره؛ فإن أبرز ما يُميّزه أسلوب الكتابة القصصية المعتمد على السرد المُشوّق(حسني، 1983م، ص:6)، و قد يكون أدب الرّحَلِ، بالإضافة إلى أدب السِّيَرِ، من أنبلِ الآداب جنساً، وأشرفِهِ كِتابةً، وأصدقهِ عاطفةً، وأدْفَقِهِ وِجْداناً، وأمتعِهِ تعبيراً، وأخفّهِ تلقّياً من لَدُنِ القراءِ؛ ذلك بأنّ هذا الأدب يأخذ من المجتمع خفاياه وبقاياه، ومن التاريخ أحداثَه وأخبارَه، ومن الحَكْيِ شخصيّاتِه وسرديّتَه، ومن الجغرافيا تضاريسَها وأمْكِنتَها، ومن السيرة الذاتيّة ملامحَها ونضارتَها؛ ثمّ لأنّه لا يَعْدَم –أثناء كلّ ذلك- أن يأخذ من الإبداع في أنصع معانيه، ومن

زُخْرُف القول أنضرَ ما فيه... (مرتاض، 2022م، ص:5)، ومما لا يُخامره أدنى شك أن الوصف الإيحائي المُثير للأماكن الجُغرافيّة؛ والذي يُقدمه الشعراء والأدباء والرحالة، من شأنه أن يعود بفائدة عظيمة على المُهتمين باللُّغة والجغرافيا، والأدب والجغرافيا على حد سواء؛ فهذا الوصف يربط الإحساس بالمكان ،ويُمكن أن يفعل فعله في المتلقي، ويُؤثر فيه أيما تأثير؛ ذلك أن الجغرافي المُثقف يُدلل على وعيه ومعرفته بالتأثير الإنساني في الأماكن الجغرافية من خلال تحديد هذه الصفات كصيغ حقلية-ميدانية، وكأشكال مُستقرة، وكشبكة من الأعمال الاتصاليّة(الوعر، 2007م، ص:187)؛ وهذا يدلّ على أن الأماكن الجغرافيّة أكبر بكثير من كونها عناصر، ومُكوّنات فيزيائية على أرض الواقع...إنها تذهب أعمق من ذلك...إلى درجة لا يُمكن بسهولة أن نحدّدها بدقة، ونقيسها؛ إنها تمتزج امتزاجاً نسيجياً بالإنسان الذي خرج منها وإليها يرجع، ويُمكن لهذه الأماكن الجغرافية أن تكون متعلِقة بالسُلوكات الحياتية، والقيّم الفردية و الجماعية؛ التي لا يستطيع التقاطها وتصويرها على شاشة اللّغة إلاّ الشعراء والأدباء، الذين يهتمون بكشف طبيعة التجربة الإنسانية أكثر مما يهتمون بشرح السلوك الإنساني، وعلى مُستوى دلالات اللُّغة ومُفرداتها؛ أجمع المعجميّون العرب على أنّ تركيب « ر ح ل» يعني في أصل الإشتقاق ترك موضعِ الإقامة، والذهاب إلى مكان آخر؛ فقد جاء في« أساس البلاغة» للزّمخشري : « رحل عن البلد ظعن عنه، وارتحل وترحّل، ورحّلته أنا ، وغداً يومُ الرحيل والرِّحلة، ومكة رُحْلتي، وفلانٌ عالمٌ رُحْلةٌ : يُرتحلُ إليه من الآفاق .ورَحَل بعيرَهُ .وشدّ رَحْلهُ على راحلته، وشدّوا رحالهم وأرحلهم على رواحلهم، وألقى رِحالتَه على ظهره وهي السرج... والماء في رَحْله: في منزله ومأواه، وصلُّوا في رحالكم، وأرْحلهُ :أعطاه راحلة، وأرحلتُ بعيري: جعلته راحلة واسترحله: طلب منه راحلة.. وحطَّ فلان رحله، وألقى رحله: أقام». (الزمخشري، 1989م، ص:225). وفي «مفردات ألفاظ القرآن» للرَّاغب الأصفهاني، نجد: «الرحل ما يُوضع على البعير للركوب، ثم يعبَّر به تارة عن البعير، وتارة عمَّا يجلس عليه في المنزل، وجمعه رحال ...وأرحلت البعير: وضعت عليه الرحل، وأرحل البعير: سمن، كأنه صار على ظهره رحل لسمنه وسنامه، رحلته: أظعنته، أي: أزلته عن مكانه، والراحلة: البعير الذي يصلح للارتحال، وراحله: عاونه على رحلته، والمرحل برد عليه صورة الرجال» (الأصفهاني، 2009م، ص:254). وفي « المصباح المُنير» يشرح العلاّمة أحمد الفيومي رحل على هذا النحو: «رحل عن البلد رحيلاً ويتعدّى بالتضعيف، فيُقال رحلته وترحلت عن القوم، وارتحلت والرحلة بالكسر والضم لغة اسم من الارتحال، وقال أبو زيد الرحلة بالكسر اسم من الارتحال، وبالضم الشيء الذي يُرتحل إليه، ويُقال قربت رحلتنا بالكسر، وأنت رحلتنا بالضم، أي المقصد الذي يُقصد، وكذلك قال أبو عمرو الضم هو الوجه الذي يُريده الإنسان، والرَّحْل كل شيء يعدّ للرحيل من وِعاء للمتاع، ومركب للبعير وحلس ورسن، وجمعه أرحل ورحال...ورحلت البعير رحلاً من باب نفع شددت عليه رحله، ورحل الشخص مأواه في الحضر ثم

أُطلق على أمتعة المسافر...» (الفيومي، 1990م، ص:85)، كما نلفي في «معجم الألفاظ والأعلام القرآنية»؛ رحل عن المكان: تركه، والرحلة :الارتحال والانتقال من المكان للسفر، والرِّحل وجمعها رحال: الأوعية التي يضع فيها المُسافر زاده ومتاعه وغيرها على ظهر الدواب، وهي مثل السُّرُج(إسماعيل، 2002م، ص:215)؛ فالرحلة اسم مشتق من رحل: سار ومضى، وهو يعني فيما يعنيه الابتعاد، وتغيير المكان، كما يتصل بدلالات هذا اللفظ جملة من الأشياء التي تحمل معاني العنت والتعب والقوة والحرمان، وفي الآن ذاته فإن الرحلة ترتبط بدلالات تحمِلُ المتعة والإفادة، واللذة من خلال الثمار التي يجنيها الرحالة إذا سارت رحلته كما يشتهي، وكما يُراد لها، إن أدب الرحلات، أو أدب الرحلة؛ هو شكل من أشكال الكتابة الأدبية التي تؤثر بشكل بارز في الثقافة الإنسانية جمعاء، وفي المجتمعات التي احتضنتها؛ فنحن نُلفي في هذا النوع من الكتابة خطابات الهُوية، والغيرية، ونقرأ موضوعات تاريخية، واجتماعية، وسياسية تتصل بالعلاقات الدبلوماسية بين بلد الرحال، والبلد المقصود في الرحلة، وتزخر عدة نصوص أدبية بمعلومات ثمينة علمية، وثقافية؛ تُميط اللثام عن جو المناقشات العلمية، وإلقاء المحاضرات، والدروس في أهم المراكز الثقافية، والمؤسسات الدينية؛ فضلاً عن تبادل الإجازات، والمعارف العلمية، والتأمل في أهم المعالم الثقافية؛ فالرحال يعتمد على مصدرين«أحدهما المشاهدة والتدوين للمعلومات، وهذا المصدر يحكمه التأثر الشخصي، وتأثير العادات، والتقاليد، والمعتقدات للرجال، والثاني الأخبار المنقولة، وهي أيضاً إما شفوية رواها له من التقى بهم ممن يعيشون في المناطق التي لم يزرها، أو رواها له تجار، أو مسافرون عابرون، وإما أنها منقولة من كتب رحالة آخرين دونوا معلوماتهم، ومشاهداتهم عن مناطق زاروها، ولم يستطع الرحالة المرجع زيارتها، أو الوصول إلى معلومات عنها» (عيلان، 2007م، ص:21). ولقد عرف العربُ كُتب التقاويم والبلدان منذ المراحل الأولى للتأليف، ووجَّهوا هذه الكتب وجهات جغرافية بحتة أحياناً، ومطعَّمة بالأعلام والأشعار أحياناً؛ كما خصّوا مؤلفاتهم في رحلة عامة طفقوا يصفون فيها ما يرون ومن يرون، أو قد تُجعل عامة لأشهر الأمصار؛ وهم في جلِّ الأحيان يجعلون أسفارهم تأخذ طابعاً فنياً أدبياً تاريخياً جغرافياً؛ حتى غدت أشبه بالموسوعة الثقافية، وفي هذه الحال يضعف التصوير الجغرافيُّ، ويكثُر التعريف بالأعلام ،وبوصف المدارس والمواضع والمساجد، ولكنهم لم يُحافظوا على جماليّة الأسلوب الفنيّ غالباً؛ فنراهم يهتمون بطريقة العرض وأسلوب التشويق، وهذا كلُّه يُنقص من علميّة الموضوع(التونجي، 1993م، ص:55)، كما يجب أن يتميّز أدب الرحلات بجمال السرد ودقّة الوصف والملاحظة لما يُكابده الأديب من معضلات و مشاكل وصعوبات، وطرائق اجتيازها، كما أن من خصائص أدب الرحلة النقد؛ وذلك من أجل النُصح والإرشاد، وإن كان بطريقة غير مُباشرة، وذلك نتيجة لعمق نظرة الكاتب، وسعة اطّلاعه.

ثانياً: توجهات الخطاب السردي في كتاب: «رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» لعبد الملك مرتاض

تُوصف الذاكرة بأنها كنز إنساني دفين، كونها تحتفظ بالتجارب السابقة وتخزنها ثم تستدعيها مرة أخرى، حيث تتحفّز أطرافها الأخطبوطيّة العائمة دائماً باتجاهين يتسمان بالتناقض؛ فالاتجاه الأوّل هو الغياب في حضرة النسيان، الذي يوصف بأنه غياب المعلومات التي كانت مخزنة سابقاً في الذاكرة سواء كانت طويلة المدى أو قصيرة المدى، والاتجاه الثاني هو الحضور الحميميّ في قلب اللحظة المُناسبة عن طريق آلة الاسترجاع المشحوذة دائماً بقوّة تتسم بالغموض، وبذلك فهي تخوض صراعاً قاسياً لا يلين، يُمكن تشبيهه بلعبة مدمّرة ينتهي فيها أحد طرفي الصراع/ اللعبة في نهاية المطاف إلى جوف العتمة، كما تنهض فداحة النسيان وهيمنته من جانب وقوة الاستحضار وحيويته من جهة أخرى على عوامل متنوعة وعميقة؛ منها العوامل البيئية والنفسيّة والاجتماعية والثقافية والمعرفية والفكرية والوجدانية والعاطفية والانفعالية، وقد نالت الذاكرة حظها من العناية، وحظيت بمقاربات وقراءات ودراسات كثيرة(فلسفيّة وثقافيّة وأدبيّة)، بيد أنها ظلّت على أكثر من مساق لغزاً محيّراً وقابلاً لمزيد من البحث والمدارسة والتقصّي والاستقراء، وفنّ الرحلة و السيرة الذاتية بأشكاله التعبيريّة والتشكيليّة المتنوعة، ومن بينها: الرواية السيرية، ينهض في مجال مركزيّ وجوهريّ من مجالاته على تمثيل الذاكرة وترهين معطياتها؛ حيث يتم استدعاء الصور والحالات والمشاهد واللقطات والحكايات والمناظر(عبيد، 2017م، ص:7-8)، ومن اليقين أن الذاكرة تلعب دوراً مهماً في نصوص الترجمة الذاتية، وفي الرواية السيرية؛ تروى الأحداث بعد أن مرت عليها فترة طويلة، والكاتب يسترجع ذكرياته وهو في الكهولة أو هو على مشارف الشيخوخة، وهي أحداث عاشها خلال مراحل منصرمة في طفولته وصباه وشبابه، وقد يؤدي استدعاء الذاكرة إلى امتزاج الواقع بالخيال، وإلى المراوغة والجمع بين رواية السيرة الذاتية والترجمة الشخصية المباشرة وبين الإبداع الروائي.

في كتاب:« رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» يسترجع الأديب عبد الملك مرتاض ذكريات رحلاته التي تمتد إلى أكثر من نصف قرن، وقد أشار في مقدمة هذا العمل إلى أنه ينتمي إلى أدب الرحلة، حيث يقول في استهلاله لهذا العمل الأدبي المتميّز:« ولقد كنتُ كتبت عن رِحْلاَتٍ كثيرة اتّفقتْ لي، فدوّنتُها بالكِتاب، ثمّ نشرتها للقَرَأةِ الأكارم في منابرَ إعلاميّة مختلفة، في الجزائر وخارجِها، مكاناً؛ ومِن ثَمّ في فتراتٍ متباعدة زماناً... وذلك مثل الكتابات التي دبّجتها عن رحلتي إلى يوغوسلافيا، كما كانت تسمَّى سابقاً، ورحلتي إلى الولايات المتحدة الأمريكيّة، ورحلتي إلى الاتحاد السُّوفْياتي -كما كان يسمَّى سابقاً أيضاً- ثمّ إلى اليمن، والمغرب، والعراق، والسُّويد، وإسبانيا، والإمارات العربيّة المتّحدة، وسَواءٌها من الأقطار التي أتيح لي ارْتِيادُها، والإلمامُ بدِيارها... وكنت قبل ذلك ارْتَرت السودان، ومصر، والأردن، وسورية، ولبنان، وتونس،

وليبيا... ولكنّي لم أفكّر، يومئذ، في كتابة انطباعاتي عن تيك الأقطار الشقيقة، فلم أشَأِ القهقرَى إليها، لأحفِرَ في الذاكرة ما عسى أن يكون قميناً بعناية القرَأَةِ واحتفالهم له... ».(مرتاض، 2022م، ص:4).

ويتماهى في أدب الرحلة و الرواية السيرية أسلوب قص الترجمة الذاتية مع أسلوب القص الروائي، وهذا ما دفع(جورج ماي) إلى الإشارة إلى صعوبة الفصل والتمييز بين أدب الترجمة الذاتية ورواية الترجمة الذاتية أو الترجمة الذاتية الروائية، وإن الذاكرة لتظل خاضعة لعامل الزمن، فهي لا تُخزن جميع الأحداث ولا تتذكر كل حياة مؤلفها؛ ولذلك يُلفي الكاتب معضلات في استدعائها، ولاسيما عندما يتعلق الأمر بالطفولة، التي يسترجعها الأديب عبد الملك مرتاض في هذا الكتاب في بعض المحطات، ولاسيما عندما تعجبه مناظر الطبيعة الخلابة في بعض الدول التي سافر إليها، وفي عدة محطات من نصه السردي حيث أبدع الأديب عبد الملك مرتاض أيما إبداع، عندما يصف المدن، ومن بين ما جاء في وصفه لمدينة ستروقا اليوغسلافية، التي زارها عام: 1977م: « ستروقا: مدينة صغيرة حيث يبلغ عدد سكّانها أقلَّ من عشرين ألفَ نسمةٍ، فيما أنبأني الدليل، فهي كالقرية الكبيرة ليس غيراً، ولكنّها دخلت تاريخ الشعر العالميّ من بابه العريض. وهي، لأنّها ليست مدينةً كبيرة، فإنّها جميلة فائقة الجمال، نظيفةُ الشوارع نظافةً فائقة، كثيرةُ الحدائق كثْرةً لافِتة. وحين نقول: «فائقة الجمال»، فإنّا إنّما نصفها وصفاً تقليديّاً قاصراً يفرضه علينا قصورُ اللّغة نفسِها عن التعبير الكُفُؤِ في أحوال معيّنة، بل في أحوال كثيرة؛ وذلك حين تتزاحم عليها الأفكار، ويتجلّى أمامها طافح الوِجدان، فتخذُل صاحبَها خِذلانا مبيناً، بعَجْزها عجْزاً مَشِيناً. وجمال ستروقا، هذا الآسرُ، وموقعها هذا الساحر، يتجلّى في البشر كما يتجلّى في الطبيعة» (مرتاض، 2022م، ص:15-16).

إن الأديب عبد الملك مرتاض يبدو منبهراً بجمال مدينة ستروقا، ومعجباً بها أيما إعجاب، ومما لا يشوبه أدنى شك أن الذاكرة تخضع لعناصر مختلفة، ومن بينها قيمة الأحداث وتأثيرها في نفس الكاتب، حيث إنها تحرّف وفي بعض الحالات تخدع وتغفل وتموّه، وقد تتسبب لصاحبها في آلام وأحزان، وقد وصفها العقاد بأنها ملكة مستبدة تحفظ وتنسى على غير قانون ثابت، وقد تذكر الأمور على هواها ولا تذكرها على حسب جسامتها واقتراب زمانها، فقد تحتفظ بحدث مضى عليه خمسون سنة وتهمل الأثر الضخم وإن مر عليه بعض الشهور أو الأسابيع، ومن الجانب العلمي فالذاكرة تدل على ملكة ذهنية، وأهم ما تتميّز به حفظ كميات من المعطيات والوصول إليها، ولذلك يُقال: «فلان ذاكرته قوية»، إذا كان في استطاعته إثارة بعض الأحداث التي وقعت خلال سنوات مضت، سواء كانت قريبة أو بعيدة، (ككنبوش، 2002م، ص:8)، وفي نظر علماء النفس؛ فهي لا تقتصر على كونها خزاناً للمعلومات، وإنما هي نظام إدراكي حركي، ونظام حسي من أجل تعديل سلوك الأفراد، وتكوين فعل الذاكرة يخضع لثلاث فترات: فترة الاكتساب، وفترة الاحتفاظ، وفترة التنشيط.

ونجد في كتاب: «رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائِبُهُنّ» لعبد الملك مرتاض، وسائل تُساهم في مساعدة الذاكرة على شد خيط الزمن واستحضار أحداثه وتوثيق جملة من الوقائع، حيث يقول الأديب عبد الملك مرتاض: « إنّ الأفكار لتتزاحم في نفسي، وإنّ الخواطر لتتغافص في قريحتي، وأنا أهمّ بتدبيج هذه الانطباعات التي لا تزال في وِجداني ساخنةً طريّة حيّةً عن مدينة ستروڤا ومهرجانها الشعريّ السنويّ العظيم. ولذلك فإنّي لا أدري كيف أضبطها فأتحكّم فيها، ولا كيف أكبح جماحها، لِكيما أقدّمَها إلى القارئ خاليةً من الاضطراب، صافيةً من التهويش، منتظمةً من فوضى التفكير. فإنْ أذِنْتَ لي، قارئي العزيز، وليس لك إلاّ أن تفعلَ إن شاء الله، فلْأَبْدَأْ بالحديث عن وصول حافلة الوفود المشاركة إلى مدينة ستروڤا. وعلى أنّ هذه الوفود لم تصل عاصمة الشعر العالميّ، إلاّ بعد أن كانت قضّتْ ليلة ساهرة ممتعةً في نزل «سلافيا» ببلغراد التي غادرناها فجراً، بواسطة الخطّ الجوّيّ الداخليّ الذي يربط العاصمة الفيدراليّة، بعاصمة الجمهوريّة المقدونيّة، وهي سكوبيا« (مرتاض، 2022م، ص:42).

إنّ النص السردي: «رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائِبُهُنّ» يعد من بين أعمال الأديب عبد الملك مرتاض المهمّة جدا، فهوّ نص جاد، ورصين للغاية في طبعه السّاخر، وصادق جدّا، وعميق في استوائه البسيط، وفي الآن ذاته فهوّ مستفز ومثير للذّكاء، وفيه بداهة شعبيّة، وفي نظرنا أنه مازال بحاجة إلى تحليلات ودراسات أخرى، وهو حريّ بأن يحظى بقراءات نوعيّة ومتنوّعة؛ نظرا لعمق رؤاه، وقوّة بنائه السّردي، وإن أهمّ ما استرعى انتباهي لدى قراءتي المتأنيّة لكتاب: «رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائِبُهُنّ»، للأديب عبد الملك مرتاض، استعماله لبعض التقنيات السينمائية في الوصف والتصوير، وذلك انطلاقاً من بنائه العامّ، الذي قُسم إلى عشر رحلات، وكل رحلة تنهض بعملية تصوير واسترجاع لأحداث محددة عاشها الأديب عبد الملك مرتاض، ولاشك في أن أدب الرحلة عندما يتلاحم مع السيرة الذاتية يكون في جل الحالات عبارة عن سرد بضمير المتكلم لسارد حقيقي يحمل اسم العلم الذي عُرف به، ويمارس في الآن ذاته السرد والبطولة داخل النص، وهو يسرد بطريقة ارتدادية، يسترجع فيها ما مضى دون إهمال الحاضر؛ فالسرد في السيرة الذاتية يتجه إلى الوراء دون أن يُهمل الأمام أو الحاضر الذي قد يكون مجرد لحظات قصيرة تُضيء الماضي الذي اقتسمه مع العديد من الأشخاص بطرائق مختلفة(مرتاض، 2022م، ص:55).

ونظراً لثقافة الأديب عبد الملك مرتاض العميقة جداً، وشخصيته الموسوعية، فقد أكثر من توظيف أسلوب الاستطراد، فهو عندما يتحدث عن مدينة ستروڤا اليوغسلافية على سبيل المثال، يستحضر مدينة أدرار الجزائرية، فنجده يقول: «في إحدى زياراتي لمدينة أدرار أنبأني بعض المسؤولين المحلّيّين، أنّ في الأفق مشروعاً زراعيّاً عظيماً، في إقليم هذه المدينة الصحراويّة الجميلة، يمثُل في أنّ الهكتار من مزروع القمح يعطي خمسة وسبعين قنطاراً، ويكون ذلك في جَنْيَيْنِ في السنة. وأمّا مزروع الذرة فيكون في ثلاثِ جَنَيَاتٍ، فكدتُ أطير سروراً، وعدت إلى جامعة وهران فبشّرت طلاّبي بأنّ الجزائر ليست بلد النفط والغاز فحسْبُ، ولكنّ ثروتها العظيمة ستمثُل في الزراعة الحديثة التي ستكفي أهلها،

وتصدّر ما زاد عن حاجتها إلى غيرها... ولكنْ يبدو أنّ هذا الجيل كلّه من المسؤولين ينقرض قبل أن يقعَ الشروع في مثل إنجاز هذه المشاريع العظيمة التي ستعيد الجزائر إلى سابق عهدها، فتصدّر القمح بدل أن تشتريَه ممّن كان استعبدها من أجله!». (مرتاض، 2022م، ص:58).

إن الأديب عبد الملك مرتاض يبدو مرتبطاً ارتباطاً وشيجاً بوطنه الجزائر، ومتعلقاً به إلى أبعد حدود فهو يتحدث عن مدينة ستروقا اليوغسلافية، وعلى سبيل المقارنة يستحضر دائماً وطنه الجزائر من باب الغيرة عليه، والحرص على تطويره وأن يصبح في طليعة الأمم، والواقع أن المقارنات التي أجراها الأديب مرتاض جعلت من عمله الأدبي « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» أنموذجا نصّيا ناضجا، فقد استطاع هذا العمل أن يُجسّد بحق وصدق عوالم أدب الرحلة عند مرتاض، وتمكّن من نسج جدليّة متلاقحة بين الواقعي والخيالي، وبين الأحلام والملموس، وبين العقلي واللاّعقلي، وتتجلّى جماليّة السّرد في هذا العمل في مزاوجته بين الغرائبي والأسطوري في محطات عديدة، ويقول الأديب عبد الملك مرتاض في موضع آخر: «كانت العرب قديماً تُسمِّي الأيّام بإضافتها إلى الحدث الذي يقع فيها؛ ومن ذلك قيل: يوم حليمة لمعركة وقعت بين أهل العراق والشام؛ وذلك حين التقى المنذر الأكبر مع الحارث الأكبر الغسّاني، وقُتِل فيه المنذر، وهو من أشهر أيّام العرب، حتّى ضربوا في ذلك مثلاً فقالوا: «ما يومُ حليمةَ بسِرّ»! وهي حليمة بنت الحارث بن أبي شمر الغسّاني، وذلك أنّها أخرجت لجُنْد جيش أبيها، قبل أن يذهب لقتال جيش النعمان، عِطْراً فطيّبتْهم به، فنُسِب اليومُ إليها. كما يقال، وهو الأمر الذي يعنينا أكثر لأنّ الموقف الجميل –لا موقف الدماء والأشلاء-يقتضيه: «يوم دارة جُلْجُل»، أطلقه امرؤ القيس على بعض نُزُهاتِهِ الماجنة، فيما كانوا يزعمون« (مرتاض، 2022م، ص:70).

لقد استوحى الأديب عبد الملك مرتاض مجموعة من المحكيّات الشّعبيّة المرتبطة بالأنساق الثقافية العربية، كما استعار بعض الخطابات التاريخيّة والصّوفيّة، و استثمر بلاغة الشّفوي، وعلامات التّشكيل، وتقنيّات السّينما، وأعاد الاعتبار لأسئلة الذّات في تماسها مع عوالم المجتمع، مُجسّدا في رحلات متنوعة، و تبدو تجربة الأديب من خلال هذا العمل الأدبي الإبداعي: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» متوافقة مع الميثاق السّردي في بعض محطّات النّص السّردي، كما تظهر متمردة عليه في الآن ذاته في جوانب أخرى، ولقد قسّم الأديب عبد الملك مرتاض كتاب: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» إلى أقسام بعضها يتسم بالقصر، وقد حاول الكاتب أن يُنوع من الأشكال السردية؛ فعدد من استخدام الضمائر، فقد اصطنع السرد بضمير الغائب، وذلك حتى يكون محايداً وموضوعياً أثناء الحكاية، كما سمح له هذا التوظيف(توظيف ضمير الغائب) بإفساح المجال لتقديم الأحداث والتحولات، والمشاهد الرئيسة، وهذا الشكل السردي، هو شكل محمود «لأنه يُركز النشاط السردي من حول راوية لا يكون إحدى الشخصيات، ولكنه يتلقاه بمباشرة تحرمه من البعد الذي ينشأ بالضرورة عن السرد ذي الطبيعة الارتدادية، والذي يكون بطريقة ضمير المتكلم، ويتميز هذا الشكل السردي بكونه يسوق الحكي نحو الأمام، ولكن انطلاقاً من الماضي، وهي تقنية مناقضة للتقنية السردية الأخرى التي تصطنع ضمير المتكلم،

وواضح أن الرواية ذات الضمير الغائب، على نقيض ما قد يُظن، لا ينبغي لها أن تقدم انطباعاً عن الحضور والمباشرة»(مرتاض، 1995م، ص:195). كما وظّف السرد بضمير المتكلم في أغلب محطات كتاب: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ»، حيث تجسدت هذه الطريقة في السرد من خلال المناجاة، أو الاستذكار، واسترجاع الماضي والأحداث المنصرمة، والغاية من توظيف «هذا الضرب من السرد هي وضع بُعد زمني بين زمن الحكي(وهو زمن الحدث حال كونه واقعاً)، والزمن الحقيقي للسارد(وهو يتجسد في اللحظة التي تُسرد فيها الأحداث عبر الشريط السردي).وببعض ذلك يتبين أن السرد بهذا الضمير ينطلق من الحاضر نحو الوراء، فكأن الحدث في الحال الأولى(السرد بضمير الغائب)، هو بصدد الوقوع، أما في الحال الثانية فإنه يصنف على أساس أنه قد وقع بالفعل، ومن الصعوبات التقنية التي تساور سبيل الروائيين الذين يؤثرون اصطناع هذا الضمير، أنهم حين يضطرون إلى اصطناع المناجاة يجدونهم مرغمين على الانتقال من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، وذلك حين يريدون وصف الإيماءات والأفكار لشخصياتهم وصفاً زمنياً»(مرتاض، 1995م، ص:196). إن الاعتماد على الذاكرة لعرض الاسترجاع، يعد من التقنيات المستحدثة، وقد وظف الأديب عبد الملك مرتاض هذه التقنية في عدة أقسام من كتابه، حيث جاء في كتاب: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» على سبيل التمثيل لا الحصر: «تحضرني حالة عشتها مع بعض زملائي من الأدباء الجزائريّين سنة 1981 بصنعاء، في مهرجان الشعر الذي كان ينظّمه الاتحاد العامّ للأدباء العرب الذي قتله، أو كاد، الخريف الأمريكيّ، فمزّق العرب تمزيقةً لن تقوم لهم بعدها قائمة؛ فكان الصديق الشاعر السوريّ سليمان العيسى مبرمَجاً لإنشاد قصيدة من شعره قبل الشاعر محمد الأخضر السائحي الكبير، فكنت أنا وأزراج والعربي الزبيري والسايح الحبيب حاضرين في أمسيّة المهرجان، فخشِينا أن لا يوفَّقَ الشيخ في إلقائه بعد أن بهر سليمان العيسى جمهور الحاضرين بحُسن إلقائه، فألهب أكُفَّهم بالتصفيق؛ لكنّ الشيخ السائحي كان أذكى ممّا كنّا نظنّ، إذْ حين صعِد المنصّة ابتدأ بسَرْدِ حكاية الأمير الذي كان له جاريتان: إحداهما تُحسن الغناء، وإحداهما لا تُحْسنه، فكان حين تغنّي البارعة في غنائها يمزّق ثيابه طرباً، وحين تغنّي المحرومة يرقّعها... فصفّق الجمهور تصفيقاً طويلاً إعجاباً بهذه النكتة وذكاء الشيخ الشاعر، فكانت مشاركته من أنجح المشاركات في ذلك المهرجان الذي انعقد بقاعة جمال عبد الناصر بجامعة صنعاء»(مرتاض، 2022م، ص:109).

إن الأديب عبد الملك مرتاض يحن حنيناً عارماً إلى زمن الأديب محمد الأخضر السائحي الكبير، ويستحضر شخصيته دائماً في الرحلات التي جمعته به، إذ يقول لدى وصفه واسترجاعه لرحلته إلى العراق: «ما أجملَ أن يسافر المرءُ مع الشيخ محمد الأخضر السائحي الكبير، المرِح الخفيف، الفَكِهِ الظريف؛ فقد كان لا يفتأ يقدّم لنا المُلَحَ الطريفة، والحكايات النادرة، فنضحك ونمرح، إذ يُنسينا ذلك كلّ تكاليف الحياة وهموم الدنيا. بالإضافة إلى أنّ ذلك كان يخفّف من وعثاء السفر، ومتاعب التنقّل، وطوائل الانتظار قبل امتطاء الطائرة، في هذا المطار أو ذاك. ولم يخترع العلماءُ الطيّارة وسيلةً للسفَر إلاّ من أجل ربْح الوقت واستثماره في الراحة أو العمل، ولكن ما أصبحْنا ننتظره في المطارات من الساعات الطِّوال، الثِّقال، يوشك أن يجعلَ من الطيّارة جمَلاً، يسير وئيداً ولا يصِل أوّلاً!، وكانت بداية السفَر يومَ

السبت خامسَ عشَرَ من مارس، سنة ألفٍ وتِسْعِمائةٍ وسِتٍّ وثمانين، صباحاً من مطار هواري بومدين الدوليّ في أحدِ نسور الجزائر. ولوْمَا بعضُ تلك النوادرِ التي كان الشيخ السائحيّ الكبير يُحْمِضُنا بها، من حين إلى حين، لكان سفرنا إلى بغداد شاقّاً مُضْنياً. ولعلّ أوّل التعب أن يأتيَ إليه من ذلك التأخّر الذي اقترب من ساعتين اثنتين في باريس قبل امتطاء الطائرة العراقيّة. فلا شيءَ أسوأُ على الأرض، ولا أشقَّ على السَّفْرِ، من الانتظار الطويل...» (مرتاض، 2022م، ص:322).

يتضح من خلال هذه المقاطع السردية أن الأديب عبد الملك مرتاض وظّف تقنية«الاسترجاع» في كتاب: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ»، في كثير من الأحيان على شكل مقارنة؛ لإبراز المفارقات التي تقع في سياق المسار السردي، وقد ورد هذا المصطلح «الاسترجاع» من لغة السينما، حيث يمكن أن نصفه بأنه من المصطلحات المهاجرة؛ فالكاتب عبد الملك مرتاض في المشاهد السابقة ترك مستوى القص والسرد الأول؛ ليعود إلى بعض الأحداث الماضية، حتى يُلقي عليها الضوء ويُفسرها، ويُلاحظ أن التفسير يكون في ضوء المواقف المتغيرة والمتحولة، وهذا ما يسمح بمنح بعض المعاني الجديدة؛ فكلما تقادمت الذكريات تغيرت الرؤى إليها، ومن ثمة يقع التحول في تفسيرها، انطلاقاً مما استجد من أحداث، فقد رأينا تأويلات مختلفة للواقع انطلاقاً من ذكرياته التي وقعت في الأحداث المنصرمة .

إن هذه التقنية(الاسترجاع) تُعرف بأنها أن ينتقل الكاتب بين عناصر الزمن من ماض وحاضر، في حركة طبيعية تشعر بتلاحم الزمنين في وحدة لا يفصلها فاصل، والحقيقة أن الذكرى لا تعلم دون استناد جدلي إلى الحاضر، فلا يمكن إحياء الماضي إلا بتقييده بموضوعة شعورية حاضرة بالضرورة. وقد يجعل الاسترجاع الماضي المستعاد في نطاق رؤية الشخصية يصطبغ بصبغة متميزة ذات طابع عاطفي، يستعين الكاتب عادة بآلية الاسترجاع للتخفيف من حدة التوتر الذي تعانيه الشخصية التي ترتد بها الذكريات إلى الزمن الماضي، الخلفية الزمنية للسرد التي تمثل زمن السعادة مقابل زمن الشقاء الذي يشكل-عادة- البؤرة الزمنية للسرد (مرتاض، 2014م، ص:64). كما وظف السرد بضمير المتكلم في بعض المحطات ،حيث تجسدت هذه الطريقة في السرد من خلال المناجاة، أو الاستذكار، واسترجاع الماضي، والأحداث المنصرمة، والغاية من توظيف هذا الضرب من السرد هي وضع بُعد زمني بين زمن الحكي(وهو زمن الحدث حال كونه واقعاً)، والزمن الحقيقي للسارد(وهو يتجسد في اللحظة التي تُسرد فيها الأحداث عبر الشريط السردي).وببعض ذلك يتبين أن السرد بهذا الضمير ينطلق من الحاضر نحو الوراء. فكأن الحدث في الحال الأولى (السرد بضمير الغائب)، هو بصدد الوقوع، أما في الحال الثانية فإنه يصنف على أساس أنه قد وقع بالفعل، ومن الصعوبات التقنية التي تساور سبيل الروائيين الذين يؤثرون اصطناع هذا الضمير، أنهم حين يضطرون إلى اصطناع المناجاة يجدونهم مرغمين على الانتقال من ضمير المتكلم إلى ضمير الغائب، وذلك حين يريدون وصف الإيماءات والأفكار لشخصياتهم وصفاً زمنياً (مرتاض، 2022م، ص:196).

واللافت للنظر في التقنيات السردية التي تجلت في كتاب: «رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» أن الارتداد لم يوظف على نمط واحد، حيث إننا ألفينا وجود ارتداد بطريقة الرجوع إلى الوراء، واستحضار أحداث ماضية دون مزجها بالحاضر. ومن بين المحطات التي تجلى فيها الارتداد، الذي يُعرف بأنه يعني الرجوع

نحو حكاية كان يُمكن أن تُذكر في موضعها من السياق السردي، فأُرجئ تقديمها لغاية من الغايات الفنية التي منها حب المزج بين الحاضر والماضي، وإدماج أحدهما في الآخر بطريقة تتوخى الحيوية، والحركة المتجددة في السرد(مرتاض، 2014م، ص:164)، عندما يتذكر الأديب عبد الملك مرتاض الأحداث التي وقعت سابقاً ويمزجها بالحاضر، فيقول: «ومن المصيبة القاصمة، والتَّهلُكة القاتلة، أن نُلفيَ مَن طالبَ سنةَ تسعٍ وخمسين وتسعمائة وألف بانضمام هذا الكيان الأوربيّ/الأمريكيّ الذي أُطلق عليه، في غفلة من التاريخ الناعس، وفي سَهْو من الدهر الحابس: «إسرائيل»؛ إلى هذا الشيء الذي سُمِّيَ، بعد أعوذ باللّه من الشيطان الرجيم، ثمّ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم: «الجامعة العربيّة»! ومعنى هذه العبارة بالدلالة الواقعيّة لمعنى اللغة: «مبدِّدة الصفّ العربيّ وممزِّقته»! وذلك من باب تسمية العربِ بعضَ الْمُسَمَّيَاتِ بأضدادها، كإطلاقهم السليمَ على الملسوع، والمفازةَ على القَفْرةِ المُهلكة. فالعرب أَلِفتْ تسميَة الأشياءِ، إذن، بأضدادها. وكذلك فعل الأحفاد مثل ما كان يفعل الأجداد، فأطلقوا على هذه الهيئة المبدِّدة للصفّ العربيّ المبدَّدِ أصلاً، وممزّقتِه: «الجامعةَ العربيّة»! إنّهم لم يقصدوا بها، في حقيقة الأمر، إلاّ إلى ما يضادُّ معناها، أي المبدِّدة لا الجامعة، والمشتِّتة لا اللاّئمة، والمفسدة العَلاقاتِ؛ إنّا سلّمنا بذَهاب الشرَف، وآمنّا بارتفاع المروءة، وقبِلْنا ضياعَ الشهامة العربيّة التي أُخْبِرْنا بواسطة النصوص الأدبيّة التي أَلْمَنا بها، أنّها كانت من شِيَم الأجداد أحسن الله إليهم؛ فهل أُضيفَ إليها، في زمننا هذا، انعدامُ الحياءِ أيضاً، فأمسى من شيَمهم التي يتباهَون بها ويتفاخرون؟! ولكنّ ذلك كلَّه كان لأنّ الإخوة الفَلَسْطِيّينَ لم يتّحدوا داخل تنظيم سياسيّ واحدٍ يُلمّ شملهم، ويوحّد صفّهم أنْ لا يتفرّق، ويجمع كلمتهم أنْ لا تختلف، ليكونوا قوّة ضاربة قاصمة »(مرتاض، 2022م، ص:381)، ومن الواضح أن الأديب عبد الملك مرتاض يوجه انتقادات لاذعة يُعبرّ من خلالها عن تدمره من الواقع المؤلم الذي وصلت إليه الأمة العربية، ولاسيما عندما يصف رحلاته إلى عدد غير قليل من الدول العربية، يظهر في بعض محطات كتاب: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» أن الأديب عبد الملك مرتاض من خلال بعض ر حلاته وكأنه يبحث عن أشكال جديدة للكتابة الرّوائيّة، حيث يسعى إلى تجديد الواقعيّة، وتجسيدها عن طريق إشارات، وعلامات تتخطّى التّحولات، وتعيد تشكيل المتخيّل من خلال توظيف العجائبي والأسطوري، وتتعدد مستويات السرد، و يبدو الأديب عبد الملك مرتاض في بعض رحلاته، وكأنه يشخّص الواقع عبر التقاط التّفاصيل المهمّشة، والعوالم الخفيّة في البلدان التي زارها، كما أنه يقوم بصيّاغة المحمولات الثّقافيّة بمختلف امتداداتها في الذّاكرة، والوعي، والجسد، وقد مثّل الملفوظ السّردي في عدد من رحلاته قسما من البناء العام للعوالم الرّوائيّة التي اجتهد الأديب عبد الملك مرتاض في ترسيخ قواعدها، وإرساء أسسها، وإيضاح ملامحها من خلال مجموعة من الرحلات، فلقد لاحظنا أنّ جملة من الموضوعات السّردية متجلّية، وبارزة في مفردات البناء الفنّي، وفي طليعتها البيئة العربية، ومن خلال المدينة التي شكّلت الفضاء المروي الأثير، والدّائم لدى الأديب عبد الملك مرتاض، فضلا عن الموروث الاجتماعي الذي تتناقله الأجيال، وتحرص على المحافظة عليه في شكل طقوس احتفاليّة واحتفائيّة تقترب أحيانا من أجواء أسطوريّة وعوالم عجائبيّة تتّسم بالغرابة.

وقد برزت تقنية «الوقف» في كتاب: «رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ»، عن طريق وصف الأماكن والفضاء؛ إذ أحياناً نجد الأديب عبد الملك مرتاض يُمعن في وصف الفضاء، أو الحيز بطريقة فنية وجماليّة متميّزة، ومن بين ما جاء في كتاب: «حَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ»: «... إلاّ بعد أن كانت قضّتْ ليلة ساهرة ممتعةً في نزل «سلافيا» ببلغراد التي غادرناها فجراً، بواسطة الخطّ الجوّيّ الداخليّ الذي يربط العاصمة الفيدراليّة، بعاصمة الجمهوريّة المقدونيّة، وهي سكوبيا. وقد كانت الطائرة تتصارع مع السحاب المركوم بعضِه فوق بعضٍ؛ فكنت تراها تصعد من فوقه طوراً، وتنزل من تحته طوراً، وتهجم عليه طوراً آخرَ فتشُقّه شَقاً عنيفاً، وتخرِقه خرْقاً جريئاً »(مرتاض، 2022م، ص:62). إن الوصف عند الأديب عبد الملك مرتاض حيّ ولذيذ ليس فيه بهرج ولا تكلّف، وقد تأتى له ذلك من خلال ملازمته للأحداث والتصاقه بالواقع الموصوف، ونذكر من بين هذه الأوصاف المتميّزة بالدقة في التصوير، والتي قدمت جملة من الملامح المعبّرة في سياق المسار السردي، والتي اهتم فيها الأديب عبد الملك مرتاض بوصف الفضاء والحيز المكاني، قوله: « ركِبْتُ، إذن، سيّارة مستأجَرة كانت تبدو لي فخمة، لتحملَني ومتاعيَ إلى الجزائر العاصمة، ومِن حيث أتّخذ رحلتي من هناك إلى الإمارات العربيّة المتحدة، وقد كنت باختياري سيّارةَ أجرةٍ كان صاحبها لي صديقاً، فكأنّ الهروب من اتّخاذ الطيّارة إلى اتّخاذ مثل تِيك السيّارة لم يكُ منّي سلوكاً موفّقاً. وإنّما شجّعني على اتّخاذ البَرّ مطيّةً لي، في الحقيقة، وجودُ طريقٍ سيّار جميل في معظم حالاته بين مدينتيْ وهرانَ والجزائر، ومناظرَ طبيعيّةٍ خلاّبة تتّسم بالخضرة المُدْهامَّةِ، والغابات الكثيفة، والمياه الجارية أو المتجمّعة. وكانت السيارة التي أجّرتها لنفسي بسائقها تبدو لي فارهة، إلى أنْ جاوزْنا ضواحيَ مدينة شَلَف، أي بعد أن قطعنا أكثر من نصف الطريق نحو مدينة الجزائر» (مرتاض، 2022م، ص:488).

إن الأديب عبد الملك مرتاض له إبداع في الوصف والتصوير، فهو ينحت في بعض محطات كتاب: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ» أشخاصه نحتاً، ويرسم صوره رسماً معبّراً فيُحوّل القارئ في بعض الحالات إلى شخصية مشاركة ومتفاعلة، كما تواترت تقنية «المشهد» في بعض فصول كتاب: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائبُهُنّ»، حيث إنها تخللت الحركة السردية، لتقطع استرسالها، وتقدم لنا رؤى متوافقة، ومنسجمة، فقد وجدنا أن هذه التقنية تظهر في الحوار كونه الوسيلة الرئيسة لعرض ما يتداول على أفواه الشخصيات، ويعبر عن الهواجس فيها(تقنية المشهد) بطرائق تتسم بالحرية في التعبير عن الذات.

ولقد تميّز الأديب عبد الملك مرتاض برُقي وصفه ودقته التي وصلت إلى درجة فنية عالية، وبدت لغة المؤلف الفصحى سهلة وبسيطة، وابتعدت عن الغرابة والتعقيد، ومن يقرأ رحلات الأديب مرتاض قراءة سيميائية يُلاحظ تداخل عدة خطابات في رحلاته، و من أبرزها: الاجتماعي، والإيديولوجي، والخلقي، وغيرها...، وقد ارتبطت البنية اللّغوية في هذا العمل بجملة من المعاني والدّلالات العديدة، منها: التراثي، والشعبي، والدّيني، والتّاريخي، والاجتماعي، و تبدّى لنا أنّ هذه الرّوافد، والمداخل الثّقافية، والحضاريّة التي تجلّت في رحلات الأديب عبد الملك مرتاض، قد أسهمت في توسيع الحقل الفضائي للرحلات، ونمّت

مدارك القارئ الفكريّة، وقدّمت له إحاطة بعوالم بيئة الرحلات، كما بعثت الشخصيات التي تحدث عنها الأديب مرتاض الحياة في المكان، ولاسيما أنه قد امتزج في محطّات كثيرة بشكل تفاعلي مذهل معها.

خاتمة:

لقد تميّزت رحلات الأديب عبد الملك مرتاض، التي دبجها في كتابه: « رِحَلاَتي العَشْرُ... وعَجائِبُهُنّ» بدقة التصوير، والإحاطة الشاملة بالأمكنة التي مرّ بها، وتوقف فيها؛ وقد تنوّع حضور المكان في رحلته؛ بحيث نُلفي المكان الطبيعي، والمكان الثقافي، والمكان المقدس، والمكان غير المقدس، والمكان المنفر، والمكان المُكّرِم لصاحب الرحلة، والمكان الحميمي؛ الذي مثلته بلاده الجزائر التي كان ينطلق منها في رحلاته نحو المشرق العربي، أو نحو البلاد الغربية في أوروبا وأمريكا، وظلّ يحنُّ إلى وطنه الجزائر طيلة انتقاله من مكان إلى مكان حنيناً عارماً، وقد تميّزت هذه الرحلات البديعة بتسجيلها بعناية فائقة للأحداث التي عاشها الأديب عبد الملك مرتاض، و تصوير ما كابده من مشقة وآلام في سبيل الوصول إلى وجهاته المختلفة، ولم يتجاوز الأديب عبد الملك مرتاض، في معظم ما كتبه حدود ما شاهده وعاينه؛ فجاء وصفه مُفعماً بالبساطة والصّدق، ونابضاً بالصوّر الحيّة التّي ترسم بدقّة مظاهر العمران الاجتماعيّ في شتى الدّيار، وقد وظّف في كتابه مجموعة من تقنيّات السّرد، ومن أبرزها: الاستباق، والاسترجاع، والمشهد، والإجمال، والحذف، ولاشكّ في أنّ النّص السّردي منوط بتوفير جملة من العناصر والشروط ،وهيّ شروط قويمة تعمل على تأثيره في المتلقّي، ونجاحه، وتميّزه، ويقوم فن السرد في رحلات الأديب عبد الملك مرتاض في بعض المحطات على تضمين حكاية داخل حكاية أخرى، بوساطة قنوات نقل الخبر، أو الاسترجاع، الذي يُراد به إيقاف عملية القص، والرجوع إلى الوراء لاستحضار أحداث مُنصرمة وقعت في الماضي، تفصلنا عنها مسافات قد تقصر أو تطول، وقد استلهم الكاتب في بعض محطات الكتاب أسلوب السرد العربي القديم باستدعائه أساليب القدماء في الرواية، كما نوّع في الأشكال الأساسية للحركة السردية ،وهذا ما يندرج في إطار ما يُعرف باسم: (الديمومة)، والتي تعني دراسة الصلة القائمة بين الحيّز الذي تستغرقه الأحداث في الحكاية-أي في زمن الخبر-والحيّز الذي تمتد عليه في النص-أي في زمن الخطاب-.

قائمة المصادر والمراجع:

المصدر:

-مرتاض، عبد الملك. (2022م)، رحلاتي العشر وعجائبهن، الجزائر، دار القدس العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

المراجع:

-إبراهيم، محمد إسماعيل، (1998م)، معجم الألفاظ والأعلام القرآنية، لبنان، دار الفكر العربي.

-الأصفهاني، الرّاغب، (2009م)، مفردات ألفاظ القرآن، حققه وعلق عليه: مصطفى بن العدوي، مصر، منشورات مكتبة فياض للتجارة والتوزيع.

- التلمساني، آسية الهاشمي البلغيتي، (2007م)، وصف الراحلة في الشعر الجاهلي، المغرب الأقصى، منشورات دار نشر المعرفة للطباعة والنشر والتوزيع.

- التونجي، محمد(1993م)، المعجم المفصل في الأدب، لبنان، دار الكتب العلمية.

- حسني، محمود حسين، (1983م)، أدب الرحلة عند العرب، لبنان، منشورات دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع.

- حنون، عبد المجيد، (2010م)، السياحة واللّغة العربية، الجزائر، منشورات المجلس الأعلى للغة العربية.

- خضر، موسى محمد حمود، (2011م)، أدب الرحلات وأشهر أعلامه العرب ونتاجهم، لبنان، منشورات دار الكتب العلمية.

- رومية، وهب، (1979م)، الرحلة في القصيدة الجاهلية، لبنان، منشورات مؤسسة الرسالة.

- الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر، (1989م)، أساسُ البلاغة، لبنان، منشورات دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

-سمير سعد، حجازي، (2020م)، قاموس مصطلحات النقد الأدبي المعاصر، لبنان، منشورات دار الآفاق للطباعة والنشر والتوزيع.

-الشعّار، فوّاز (1999م)، الأدبُ العربي الموسوعة الثقافيَّة العامَّة، لبنان، منشورات دار الجيل للطباعة والنشر والتوزيع.

- عبيد، محمد صابر، (2017م)، أسنان الذاكرة البيضاء مقاربات في سيرة الحمودي لعمر عبد العزيز، الإمارات العربية المتحدة، منشورات دائرة الثقافة والإعلام بالشارقة.

- عيلان، محمد، (2007م)، التراث الشعبي الجزائري-دراسات وبحوث ميدانية-، الجزائر، منشورات وزارة الثقافة الجزائرية بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية.

- الفيومي المقرئ، أحمد بن محمد بن علي، (1990م)، المصباح المنير، لبنان، منشورات مكتبة لبنان.

-القاضي، محمد، (2020م)، معجم السرديات، لبنان، دار الفارابي للطباعة والنشر والتوزيع.

- كرستيان، ككنبوش، (2002م)، الذاكرة واللُّغة، ترجمة: عبد الرزاق عبيد، الجزائر، منشورات دار الحكمة للطباعة والنشر.

-محمد، فريد عبد الله، (2005م)، أثر السياحة في اللُّغة العربية، الكويت، منشورات وزارة الإعلام بدولة الكويت.

- مرتاض، عبد الملك، (1995م)، تحليل الخطاب السردي-معالجة تفكيكية سيميائية مركبة لرواية (زقاق المدق) -، الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية.

- مرتاض، عبد الملك، (2022م)، السرد والسردانية-عرْضٌ لنظريّات السردانيّة العربيّة المعاصرة، وتحليلات لبعض نصوصها-، الجزائر، منشورات دار القدس العربي للطباعة والنشر والتوزيع.

- مرتاض، عبد الملك، (2014م)، شعرية القصّ وسيمائية النص-تحليل مجهري لمجموعة (تفاحة الدخول إلى الجنة)، الجزائر، منشورات البصائر الجديدة.

- المغيربي، محمد، (2013م)، رحَّالة الغرب الإسلامي، الإمارات العربية المتحدة ولبنان، منشورات دار السويدي للنشر والتوزيع. --الوعر، مازن، (2007م)، الجغرافيا والأدب تقاطع المعارف البشرية، الجزائر، منشورات المجمع الجزائري للغة العربية.